الحروب الصليبية

●

بدأت المدن الاوربية تلهج بضرورة إقصاء الأتراك من حوض البحر المتوسط ، وكان الاتراك مسلمين فانتشرت فكرة الحرب الصليبية على الاسلام ، وأذكى ضرام هذه الفكرة ما حدث من اعتداء على بعض الحجاج الاوربيين وهم في طريقهم الى بيت المقدس ، وقد سميت هذه الحرب : صليبية ، لان محاربي الفرنجة كانوا يرسمون علامة الصليب على ثيابهم وأسلحتهم . على أننا نستطيع التأكيد بأن مشروع إنقاذ الاراضي المقدّسة ، إنما كان بالدرجة الاولى ، مشروعاً اقتصادياً يُعلق عليه التجار الاوربيون آمالا كبيرة .

وقد استطاع البابا اوربانوس الثاني أن يسبغ على هذا المشروع طابعاً دينياً محضاً ، لتوطيد سلطة البابوية . وكان اوربانوس الثاني يعتقد ، شأن سلفه غريغوار السابع ، بضرورة خضوع الممالك الكاثوليكية لسلطة البابا ، وقد رأى في الحروب الصليبية وسيلة يحوّل بها شطر الشرق وجوه اولئك البارونات والفرسان الذين يعكرون أمن القارة الاوربية بالحروب الداخلية والمغامرات المستهترة وأعمال اللصوصية ، ويسيئون الى رجال الاكليروس منكرين عليهم

ما ينبغي لهم من إكرام واحترام ، وأدرك انه إذ يحشد تحت راية المسيح ذلك الجيش الاممي الذي يضم جموع الاقطاعيين من شتى البلدان والاجناس ، ويُرسله الى الاراضي المقدّسة كي يحارب لخدمة الدين المسيحي ، فانه إنما يرفع البابوية الى المقام السامي الذي يريده لها ، ويخضع لسلطتها المعنوية أو الفعلية جميع الملوك والاقطاعيين الذين ينتظمون في تلك الحرب ويساهمون فيها ، وتكون له يد على بيزنطية لانقاذه إياها من الخطر التركي الذي أحدق بها والذي أرسلت اليه تستنجد به منه بلسان امبراطورها الكسي كومنين ، فيسعى بضم كنيستها الشرقية الى كنيسة روما الغربية ، وتصبح أقطار اوروبا ، وربما اقطار العالم كلها ، خاضعة لكنيسة واحدة هي كنيسة روما ، ولسلطة دينية واحدة هي سلطة البابوية . قال المؤرخ الفرنسي اندره بيرار : « وهكذا جنّدت البابوية اوربا لتنفيذ خطتها الواسعة ، وأرغمت الامراء على الخضوع لها عن طريق متعرّجة ، فانقضّت جيوشهم بشغف لانقاذ اورشليم ، وهي تجهل الدوافع الخفية لتلك الحرب الضروس . ووطّد هذا الانتصار الذي أحرزته الديانة المسيحية ، مشاريع تجارية لم تكن البابوية نفسها تجهلها أو غريبة عنها » .

في سنة ١٠٩٥ شخص اوربانوس الثاني الى مجمع كليرمون فران كي يُرسل الصرخة الرسمية الى الحروب الصليبية . ولم يستطع هذا الرجل المخلص للتقاليد الكنسية ، إلا أن يُعرب لذلك المجمع عن فوائد هذا المشروع من جوانبه المتعدّدة ، فكان مما قاله في خطابه التاريخي : إنّ هذه الحرب « ليست تشنّ لاكتساب مدينة واحدة

بل لامتلاك اقاليم آسيا باجمعها مع غناها وخزائنها التي لا تحصى ، فاتخذوا حجة البيت المقدس وخلّصوا الاراضي المقدّسة كلها من أيدي مختلسيها ، وامتلكوها انتم خالصة لكم من دون اولئك الكفار ، فهذه الارض كما قالت التوراة : تفيض لبناً وعسلاً » وقال مخاطباً جنود اوربا : « لقد كنتم تحاولون من غير جدوى ، إثارة نيران الحروب والفتن فيما بينكم ، فاستيقظوا الان لانكم وجدتم داعياً حقيقياً اليها . لقد كنتم سبب إزعاج مواطنيكم وقتاً ما ، فاذهبوا الان وازعجوا البرابرة ، إذهبوا وخلصوا البلاد المقدسة من أيدي الكفار . أيها الجند، أنتم الذين كنتم سلع الشرور والفتن ، هبوا اليوم وقدّموا قواكم وسواعدكم ثمناً لايمانكم ، وتسلحوا بسلاح الدين والتقوى ، فانكم بذلك تنالون الجزاء الاوفى والنعيم الدائم» . وقد أعلن أن كل من اشترك في هذه الحروب غفرت له ذنوبه ودخل في حماية الكنيسة ، وأن أمواله وذويه جميعاً تكون في حماية الكنيسة ، وان متاعب الحرب وأخطارها ليست إلا تكفيراً عن الذنوب . ومن هنا نشأت فكرة الغفران وأصبحت من طقوس الكنيسة الكاثوليكية .

وما لبثت المدن التجارية في فرنسا وايطاليا أن تبنت المشروع بحماسة شديدة ، لأنه يبعد عنها الأسياد الاقطاعيين الذين تضيق بهم ، ويؤمن لها سوق الشرق . ووجدت الدعوى صدىً مجذاً أيضاً في روح الفروسية التي كانت تسود ذلك العالم الاقطاعي . فلم تقبل السنة التالية ، حتى كان يزحف على طرق الشرق بقيادة غودفريد دي بويون مائة وخمسون الف رجل من جميع الاقطار والاجناس ،

ولكن كثرتهم الغالبة كانت من الفرنسيين الذين كانوا يدعون فرنك اي فرنجة ،وهو الاسم الذي اطلق بعدئذ على جميع الغربيين .

وكان تقدير البابا تقديراً صحيحاً ، فان الحروب الصليبية قد أضعفت سلطة الامبراطور هنري الرابع وأحرجت موقفه ، ووضعت اصلاح الكنيسة كما تريده البابوية موضع التنفيذ في كل مكان . ولم تحل مسألة تعيين الاساقفة ورؤساء الاديرة حلاً نهائياً ، ولكن المقر البابوي بدا بكل ابهته وجلاله ، فوق المجتمعات وفوق الملوك انفسهم ، واصبح صوته مستجاب النداء مسموع الكلمة .

وقد اتفق اوربانوس الثاني مع الامبراطور البيزنطي على ان تمر جيوش الفرنجة من بلاده ، ولكنّ هذه الجيوش عانت وهي في طريقها الى الاراضي المقدّسة الوانا شتى من الامراض والثورات والغزوات والمذابح ، بحيث لم يصل منها الى بيت المقدس في سنة ١٠٩٩ الا خمسة عشر الف مقاتل . ولم تكن فوضى جيوش الفرنجة لتقل عن الفوضى السائدة في جيوش الاتراك . وكان تمرد الجنود أو هربهم من الجندية في أحيانٍ كثيرة حرياً بان يحول دون بلوغ الفرنجة هدفهم ، لولا أن القوى التركية كانت قد هزلت بعد موت السلطان ملكشاه لما قام بين اعضاء الاسرة السلجوقية من النزاع ، ولولا انهم كانوا يتلقون من الغرب نجدات مستمرة ، ومن الاساطيل الايطالية مساعدات فعالة ، فسقطت في ايديهم انطاكية وكانت في ايدي السلاجقة ، والقدس وكانت في ايدي الفاطميين ، وبعض القرى والقلاع ، ومات البابا اوربانوس الثاني وهو في أوج ظفره . وسجلت الاقطاعية الاوربية بهذا الحدث الخطير اعظم انتصاراتها ، ولم يمض

وقت قصير حتى تأسست حول بيت المقدس امارات افرنجية عديدة، وبنيت قصور محصّنة على الطراز الفرنسي، وبدأ الفرنجة يتطلعون الى افتتاح دمشق لان طريق الحرير تمرّ منها.

يقول الاستاذ نقولا زيادة: «والحملة الصليبية الاولى، والفظائع التي ارتكبتها في طريقها وفي احتلال القدس ليست مما يُشرّف. وقد تظهر لنا رغبات الصليبيين من خلال تصرفهم السيء مع مسيحيي فلسطين انفسهم، فقد استولوا على اديرتهم وطردوهم من الكنائس والبيوت، فتبعثر المسيحيون في جهات فلسطين وشرق الاردن، وكان بطريركهم يقيم في القسطنطينية أو في القاهرة تحت حماية الخلفاء الفاطميين»

❁

مرت عشرات السنين والحروب مستمرة بين الفرنجة والبيزنطيين والاتراك والعرب. وقد شغفت هذه الحروب الاقطاعية الاوربية، ووجدت الفروسية فيها مجالا واسعاً للمغامرات والبطولات والمغانم. وكان طبيعياً ان إنشاء الدولة اللاتينية في القدس لن يضع حداً لتلك الحروب، فالاتراك لم يلقوا سلاحهم بل كانوا ما يفتأون يهاجمون هذه الدولة، يناصرهم في ذلك العرب سكان البلاد، وكثيراً ما كان النصر يكلل الهجمات التي يقومون بها. والفرنجة لم يكتفوا بما اصابوا من نجاح، بل ظلت المطامع التوسعيّة تراودهم فيزحفون تارة نحو الشرق وتارة نحو الجنوب. والبيزنطيون يصرون على المطالبة بما يسمونه الممتلكات البيزنطية الشرقية، فيتابعون حروبهم مع الاتراك ويشتبكون احياناً مع الفرنجة انفسهم.

قال باشوليه وده‌ذوبري في قاموسهما الجغرافي التاريخي: «وقد

عوّضت الخسارة المادية التي اصابت المسيحيين بانتصارات باهرة في النظام السياسي والادبي ... وكذلك القن الذي حمل الصليب نال حريته الشخصية ، وانتشرت الملاحة وارتفع شأنها فزادت قوة بيزة وجنوة والبندقية التي اكثرت من مراكزها التجارية في البحر المتوسط ، واستفادت الصناعة والزراعة ايضاً بما عرفه اهل اوربا من وسائل جديدة ومحصولات كانت مجهولة لديهم كالحرير وصناعته والصباغة والزعفران واشغال المينا والمعادن والاحجار الكريمة ، وانتقلت زراعة قصب السكر الى صقلية ، وتمكن السياح الاوربيون من دخول بعض مجاهل آسيا ».

وفي الواقع ان التفاعل قد اشتد بين الشرق والغرب في خلال هذه الحروب ، وأصبحت مدن الشاطىء في سورية ولبنان وفلسطين مستعمرات افرنجية حقيقية ، وعكفت المعامل الاوربية على إنتاج العتاد والذخيرة لفرسان الفرنجة ، حتى اضحت المدن الايطالية والفرنسية اشبه بخلايا النحل لحركتها الدائبة . والى جانب ذلك كله كانت ترد من الشرق طرف الفن والصناعة ، وكان الفرنجة يحملون الى بلادهم ، مع ذكرياتهم ، ما رأوه وما تعوّدوه في خلال اتصالهم ببيزنطية والعرب والعالم الاسلامي من الوان الزينة والحياة المترفة . فتقدّمت الفنون والصناعات ، وازدهرت مدن جديدة ، وامتد نطاق التجارة البحرية الى القارة الاوربية كلها ، ولكن المراكز الصناعية التي كان ينشئها اصحاب المراكب الايطالية ، كانت السباقة الى العمل الدائب والانتاج المتزايد في ظل الاحتكار البحري الذي تتمتع به مدن الشاطىء ، هذه المدن التي أثرت ثراءً فاحشاً ،

حتى ان بعثاتها التجارية لم تعد تقف عند ابواب الاطلنطيك ، بل امتدت الى افريقيا ووصلت الى مناجم تاغازا واسواق العبيد في تومبوكتو . ومن اجل تأمين النقد الذي تحتاجه هذه التجارة المتسعة النطاق ، ازداد البحث عن الذهب والفضة .

وقد دفعت هذه الحركة الاقتصادية الصاعدة ، الغربَ ، في طريق تحرر اجتماعي جديد ، لان بعض الاسياد الذين كانوا حتى ذلك الوقت يفرضون على الفلاحين العمل المسخر في مزارعهم مقابل حمايتهم لهم والسماح لهم باستثمار جزء من أراضيهم ، أصبحوا يطلبون منهم عملاً أقل مقابل نقد اوفر ، فنشط بذلك قسم من الفلاحين الى العمل اكثر من قبل واستطاعوا الانعتاق من نظام القنانة . إلا أن نزعة الحرية بدت على أشدها في المدن الناشئة التي كان يسكنها التجار والصناع ، فان الطبقة البرجوازية الفتية التي كان نشوؤها نتيجة لتطور حاجات النظام الاقطاعي ، والتي نمت وازدهرت في حمايته ، اصبح هذا النظام نفسه عباً ثقيلاً عليها ، لان مدنها قد استقلت اقتصادياً عن السيد الاقطاعي ولكنها ظلت خاضعة له من الناحية الحقوقية ، يفرض عليها سلطته ويطالبها بحقوقه ويجبي منها الرسوم والمكوس المختلفة ، فطفقت هذه المدن تناضل في سبيل استقلالها وتحررها ، يناصرها في هذا النضال الملوك الذين ادركوا ان الحكم الملكي لا يتاح له النجاح الا حيث يتنظم الشعب تنظيماً مدنياً .

ورافق تلك النهضة الاقتصادية والاجتماعية ، نهضة فكرية عظيمة ، وشاعت قراءة شيشرون وافلاطون وارسطو ، وبدأ

التمييز بين الحقيقة الفلسفية والحقيقة الدينية ، والاعتقاد بانه ليس محتماً ان يمتزج الايمان والمعرفة ويؤلفا كلاً متحداً .

ولشد ما كانت المدارس الفكرية في هذه البيئة المتطلعة الى المعرفة ، تقبل على ما كان الصليبيون او الاسبان يحملون من النصوص الاغريقية التي حفظها العرب ونقلوها الى لغتهم . وقد مثل التراث العربي حينذاك ، دون قصد من أبنائه ، دوراً كبيراً في توجيه الحضارة الاوربية . وكان تعصب المرابطين يحمل بعض المفكرين العرب واليهود على الهرب من قرطبة الى اسبانيا المسيحية . ولم يضعف انهيار الخلافة الاموية في الاندلس من مكانة الفكر العربي ، فظلت اللغة العربية لغة العلم والتجارة في مراكز ثقافية كبرى مثل طليطلة ، واحتضنت برشلونة رهطاً من المعلمين العرب ، واقتبست بلنسية عن العرب صنع الورق ، وأنشأ الاسبانيون مجمعاً لترجمة النصوص العربية الى اللاتينية . ولم تنقض فترة قصيرة من الزمن حتى اغتنت العلوم الاوربية الناشئة وازدهر الفكر الاوربي ، لاقبال الاطباء والرياضيين والفلكيين على تلك الكنوز الثمينة من المخطوطات العربية التي كانت تتدفق على اوربا من سوريا ومصر وصقلية .

وكان النزاع ما يزال يشتد بين الفئات الاقطاعية في كل قطر اوربي ، متحدةً مع الفئات الاقطاعية في الاقطار الاخرى لما بينها جميعاً من قرابة في النظام الحقوقي والشعور الطبقي – وبين كل مجتمع قومي يطمح الى السلام والرخاء والاتحاد في ظل احدى الاسر المالكة التي اصبحت في ذلك العهد رمزاً للوحدة القومية

وكانت وحدها القادرة على إقرار النظام محل الفوضى الاقطاعية السائدة . وقد انتهى هذا النزاع اخيراً الى توطيد دعائم الملكية ، اذ استعان الملوك بالمدن ، ورغبتها في التحرّر ، لفرض سلطتهم المطلقة ، وكان هذا التطور حدثاً تقدّمياً كبيراً لانه ركز السلطة المتفرقة في ايدي عشرات الاقطاعيين .

بتلك الاقطاعية المسلحة ، والتجارة النشيطة ، والصناعة الناشئة والمدن المزدهرة ، وقف الغرب في القرن الثاني عشر على رأس الحضارة العالمية ، بينما كانت بيزنطية ، امبراطورية الشرق ، تتداعى شيئاً فشيئاً ، فيتضاءل نفوذها وتضعف قوتها ، وتقف البندقية في وجهها تريد الثأر منها لعملائها الذين ذبحتهم القسطنطينية حسداً وحقداً كما تذبح المواشي ، ويهب البلغار والفالاك والمجر والصرب ثائرين عليها مطالبين بالانفصال عنها . وبينما كان النور يخبو في بغداد ، وتزداد الخلافة العباسية ضعفاً بعد انهيار دولة السلاجقة وقيام الاسر الاقطاعية في أنحاء البلاد العربية تتقاسم الارضين وتتنازع على الحكم حتى اختل النظام وفقد الامن وانحطت التجارة .

وبتداعي الدولة البيزنطية التي كان الغرب يقلدها ويخشاها ، وبانهيار دولة السلاجقة التي كانت تقف امام حملات الغرب المستمرة ، انفتح امام اوربا الطريق الى استعمار البلاد العربية وتوطيد اقدامها فيها والامتداد منها الى جميع انحاء الشرق ، لولا أن اميراً فذاً ولد عهد ذاك في بلاد العرب ونشأ تحت سمائها ، وتثقف بثقافتها ، وامتزج بقومها فتأثر بهم وتشرب اخلاقهم ودرج على تقاليدهم ، وايقن انه بات منهم ، وان قضيتهم ، وهي قضية التحرر من هؤلاء

الفاتحين الفرنجة الذين سلبوا البلاد استقلالها واستقلوا بخيراتها ، هي قضيته ، فنذر نفسه للنضال في سبيلها ، وساعدته عوامل كثيرة مختلفة على توحيدهم في دولة قوية منيعة الجانب امتد سلطانها من ضفاف النيل الى ضفاف الفرات ، فصمدت في وجه الغزاة وردت خطر الاستعمار الغربي عن كاهل الشرق بضع مئات من السنين .

وكان هذا الامير الفذ يدعى صلاح الدين الايوبي .

obeikandl.com